

الأغراض الشعرية في ديوان أحمد بن عليوة:

1_المدح:

ارتبط عنده بأهل النسبة، وأهل التحقيق والعرفان، كما اصطبغ شعره بالمدائح النبوية، والذي يعرف بالحب النبوي، فهو لاء يحلو المدح فيهم في فلك الحب بمسمياته، وألوانه، فتمازج الحبين الإلهي والنبوي "ومن هذا التوحد نستطيع إمساك الخيط الروحي الذي يصل نبضات النسيب في المطالع، والابتداءات بباقي مضمون القصيدة الكاملة، ولم يبق بعد هذا التوحد، إلا أن نستبدل لفظ المدائح النبوية بكلمة الحب النبوي..."¹، وعلى الأساس هي مناجاة للذات المحمدية، كما تمثل ما يرتبط بالإنسان الكامل، والنور المحمدي هو لحظة انبعاث الكون، فهو سابق في الوجود، وفي هذا الشأن، يقول أحمد بن عليوة في قصيدته:

يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ أَنْتَ النُّورُ الْمُشَكَّلُ²
نُورٌ عَلَى نُورٍ حَبَّتْ بِهِ الْقُرْآنَ تَنْزَلُ
مَشْكَاةُ نُورًا وَزَيْتًا ضِيَاءٌ جِئْتَ مُعْتَدِلُ
لَا يَكُونُ الْكَوْنُ حَتَّى يَظْهَرَ بِكَ مُتَجَمِّلُ

إن المتتبع لأشعاره يلحظ أن أحمد بن عليوة "يتوجه بكلامه إلى النبي، كأنه موجود حي، يناديه، ويناجيه، فيسمعه ويلبّيه..."³، كما يضع أحمد بن عليوة موازنة بين التصور الصوفي الذي يقيمه، وبين الحقيقة المحمدية، ويرتبط خاصة "فيما يتصل بالنور الأزلي النبوي، الذي كان سابقا في الوجود على الموجودات، والكائنات كما في المعتقدات والتصورات السائرة مسرى التواتر واليقين وبالرغم مما فيها من تلوينات

¹ أحمد الطرييق أحمد "الكتابة الصوفية في أدب التستاوي"، ص 743

² أحمد بن عليوة "دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين"، ص 86

³ سامي الذهان "المديح"، دار المعارف، مصر، ط 2، ص 72

التاريخ، وإضافات السير والملاحم الشعبية ..¹، وخلق الله الروح المدبرة روح محمد (ص)، ومن نوره أيضا تشكّل القلم الذي هو الأصل، و به تحقق الفرع، وفي ذلك يقول:

الأَرْضُ كُلُّهَا وَ السَّمَاءُ
وَالْعَرْشُ وَالْقَلَمُ مِنْ نُورِكَ²

و عليه فكان أغلب الصوفية والشعراء " يشاركون في هذا المديح النبوي، يكبرون الجمال والكمال في خلق الله..، وقد تطوّر هذا المديح حتى أصبح أقرب إلى النسيب حين ينشد الشعراء المتصوفة في حبّ الإلاه، ويرمزون إليه بالحبیب، ويغنون في عشقه، والتّقرب منه، فيجدون فيه نورا، وأصلا، وسببا.."³، وهذا الإعجاب نحو الذات المحمدية مطلق التعلّق بجماله، وخلق، "فهو أجمل الناس طرا، لا يستثنى منهم أحدا، وهو أكملهم لا يصيبه عيب، ولا يبلغه نقد، فقد خلا من هذا وهذا، فكان الكمال المجسّم، والخلق المصقّى..⁴

لقد تطوّر المدح وتنوّع، فأتخذ ألوانا أخرى من الأدب ومثّل ذلك شعر أحمد بن عليوة الذي شمل مدحه من سقايم الهوى بمشرب عذب، فألهمهم الشرب شوقا وحبّا، وهم من وصفهم بباب الله، فمدحهم ومدح مادحهم، وفي ذلك يقول:

مَدَحْتُكُمْ كَلَّا بَلْ نَمْدَحُ مَادِحَكُمْ
لِأَنَّكُمْ أَهْلُ الْمَدْحِ، فَيَكُمُ حَلَا⁵
سَلَامُ اللَّهِ عَنْكُمْ مَا قَالَ قَائِلُكُمْ
جَزَى اللَّهُ مَنْ كَانَ دَاعِيًا لِلْمَوْلَى
وَإِنْ كُنْتُ عَبْدَكُمْ عُبِيدُ عَبْدِكُمْ
فَلِي فِي ذَاكَ فَخْرٌ وَعِزٌّ بَيْنَ الْوَلَا
مُحِبُّكُمْ حُبًّا لِلَّهِ مِنْ حَيْثُ حُبُّكُمْ
لِأَنَّكُمْ بَابُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا

¹ أحمد الطرييق أحمد " الكتابة الصوفية في أدب التستاوي"، ص 743

² أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبّين في مقامات العارفين"، ص 80

³ سامي الدّهان " المديح"، ص 70

⁴ المرجع نفسه، ص 75

⁵ أحمد بن عليوة" دواوين آيات المحبّين في مقامات العارفين"، ص 8

المناجاة:

هي تعبير وجداني خالص عن مشاعر الصّفي التي توصله ذاته إلى تعالى , بالتواصل الروحاني يتجسّد في استغاثة صوفية تكون شعرا أو نثرا, وهذا ما تراوح في كتابات أحمد بن عليوة الصّوفية, تمثل صدق التّوجه إلى الله, " كما أنّها تدلّل المحب لمحبوبه, واستعطافه, والاستعاذة به من هجره, والضّراعة إليه كي لا يحرمه من مشاهدة أنواره .."¹, ومن مناجاته ما يقوله في ديوانه:

يَا رَاحَةَ الرُّوحِ مَا أَحْلَاكَ	يَا مَنْ يَاتِ الْجَوَى وَالْفُؤَادُ ²
بَذَلْتُ وَسُئِلْتُ فِي رِضَاكَ	وَلَمْ تَزِدْ إِلَّا الْبِعَادُ
وَلَمَّا كَشَفْتَ لِي غِطَاكَ	رِضَائِي مِنْكَ بَلَا اجْتِهَادُ
أَغْضَضْتُ طَرْفِي عَنْ سِوَاكَ	وَأَشْهَدْتَنِي ذَلِكَ الْوَدَادُ
لَحَظْتُ حَقًّا سَنَا بَهَاكَ	وَفَارَقْتُ هُجُوعِي وَالسُّهَادُ

وعلى الصّوفي ألا يميل إلى غير الله, كي لا تنفصم عنه حلاوة المناجاة, وتتعدم المشاهدة, ويعرّفها أحمد بن عليوة على أنّها " محادثة الحبيب مع الحبيب في خلوة القرب والمشاهدة..³", وفي هذا الشّأن يقول :

لَا أَبْرَحُ عَنْ بَابِكُمْ	لَيْتَ الْوَدُ تَعَجَّلَا ⁴
عِنْدِي ثِقَةٌ بِفَضْلِكُمْ	لَا تَبْخُلُوا مَنْ سَأَلَا
سَلَا قَلْبِي عَنْ غَيْرِكُمْ	وَسَنَّاكُمْ فِيهِ جَلَا
فَانْفَجَرَتْ عَيْنِي بِكُمْ	عَلَى الْغُصْنِ تَجَمَّلَا
إِنْ كَانَ الْغُصْنُ بَعْضَكُمْ	كَانَ بَعْضِي بِكُمْ كَلَا

¹ يحيى بعبطيش "دراسات في الخطاب الصّوفي عند أقطاب الطريقة العلوية", ص 46

² أحمد بن عليوة "دواوين آيات المحبّين في مقامات العارفين", ص 99

³ إبراهيم عاصم الكبالي "رسائل الشّيخ المستغامي", ص 243

⁴ أحمد بن عليوة "دواوين آيات المحبّين في مقامات العارفين", ص 107

مَا ضَرَّةَ مَنْ نَاجَاكُمْ قَوْلُهُ حَقًّا وَقَصْلًا

إِذَا قَالَ بِقَوْلِكُمْ أَنْتُمْ لَهُ فَرَعٌ وَأَصْلًا

وفي مقامات التمكن يتحقق للصوفي الخلوة بحبيبه كطالب ومطلوب في حضرة الله الإلاهية الأحادية، فتزول الأستار، وتلوح الأنوار، وتباح الأسرار في تلك العلاقة، بين الذات الصوفية والذات الإلاهية، وحول هذا يقول أحمد بن عليوة :

فِي جَمِيعِ أَنْفَاسِي مُوَلَّعٌ بِكَ يَا اللَّهُ ¹

خَشِيتُ عَنْ قَلْبِي يَغْفِلُ عَلَيْكَ يَا اللَّهُ

وَأَنْتَ فِي قُرْبِي حَقَّقْنِي بِكَ يَا اللَّهُ

لم تقتصر مناجاة أحمد بن عليوة على الشَّعر ، وإنما تعداه إلى لون نثري ، ومن ذلك قوله: " إلهي أسألك بأعزّ من ناجاك، وأفضل من دعاك أن تمطر على شأبيب عطفك ، وسحائب رضاك، وتلقي فيه حلاوة ذكرك، و يتيقظه من غفلاته حتى لا يشاهد سواك وتثبتته على طاعتك، وتقويه على تقواك، يا من تحسّنت الأشياء ببهاء جمالك الأقدس...²

الزَّهْد :

¹ المرجع السابق، ص 56

² أحمد بن عليوة " النور الضاوي في الحكم والمناجاة "، ص 13

من خلاله التصوف كان طريقاً إلى العبادة، إلى أن أصبح طريقاً للمعرفة، ويغلب عليه الطابع الأخلاقي، وإثماً " الزهد أن تكون بما في أيدي الله أوثق منك بما في يدك.."¹ وبذلك يعظم الصوفي المظاهر بتركها، والإعراض عنها، فتسمو المتعاليات عنه بعد الفقد، ولا ينشغلون بها في حالات وجدهم، وبالتالي " الزهد اتجاه سلوكي مضمونه التكشف والانقطاع عن الدنيا، الاتجاه إلى الله، عن طريق العبادات المعروفة في الدين..."²، إن أول مقامات الزهد عند أحمد بن عليوة هي الترفع عن شهواتها وملذاتها لبلوغ الحضرة الإلهية، حضرة يهيم فيها العاشقين، بعد زهدهم الذي يوازي الفناء، ويكون لصيقاً به قبل التجلي، فبرأيه لا تحقق الزهد أو الفقد بالنعيم الدنيوي ، وفي ذلك يقول:

لَا حَرَامَ عَلَيْنَا إِلَّا نَظَرُهُ نَقْتَضِي إِلَيْنَا حَجَابًا³
وَلَا مَكْرُوهَ عَلَيْنَا سِوَى فِكْرُهُ تُحْدِثُ فِي الْقَلْبِ سَرَابًا
فَالْجَحِيمُ مَعَ الْوَجْدِ لَدَيْنَا مَوَدَّةً وَالنَّعِيمُ مَعَ الْفَقْدِ إِلَيْنَا عَذَابًا

فالحب الإلهي والاشتياق يشعلان فتيل نار الحضرة بحلاوة الزهد ، فزهد الصوفي الدنيا هو حب لكشف الحجب، و تجدر الإشارة إلى نّ الروح الصوفية تتغير بطبيعتها عن طريق الزهد حتى تتصل بالله اتصال الفناء ، وفي هذا الشأن يقول أحمد بن عليوة :

أَلَا تَرَى هُمُومَ الزَّاهِدِينَ عَكَفَتْ عَلَى بَابِهَا وَالْبَابُ لَهَا مَا فُتِحَتْ⁴

الدعاء والتوسل:

¹ أبو العباس بن عيسى " قواعد التصوف"، ص 111

² محمد علي أبو ريان " الحركة الصوفية في الإسلام"، دار المعرفة الجامعية، 2003، ص 27

³ أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين"، ص 102

⁴ المرجع نفسه، ص 96

يندرج الدّعاء أيضا في مضامين الأدب الصّوفي الرّفيّع، تعدّ الاستغاثات (المناجاة) موضوعا من مواضيع الدّعاء، فينضج الخوف في قلب الصّوفي، ف" الخوف والرّجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطائر، وتمّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النّص، وإذا ذهب طار الطائر في حدّ الموت..¹، ولا يخلو ديوان أحمد بن عليوة من شعر الدّعاء، ومثل ذلك قوله:

أَيَا يَا رَبِّي بِلُطْفِكَ يَا مُرْتَجِي	الْطُفْ بِنَا وَهَيِّئْ لَنَا فَرْجَا ²
سَأَلْنَاكَ يَا رَبَّ النَّجَاةِ	وَمَا فِيهِ وَيَا سَبْعَ الْمَثَانِي
وَيَا لَذِي أَتَى بِهِ وَبَبَّهْ	وَبَجَلَّ آيَاتِهِ وَحُبَّهْ
وَأَمَرَ حُبَّنَا الْفُرَّانَا	فَكَانَ أَطْيَبَ لَنَا مِمَّا كَانَا
نَزَلَتْهُ وَيَجْمَعُهُ أَمْرَتَا	فَلْتَحْفَظْهُ يَا مَوْلَانَا كَمَا قُلْنَا

كما نستشف في شعره الدّعاء الذي تتوهج فيه أنوار الشكر والحمد يصطبغان بالتّورين الإلهي والمحمدي ، تقذفه إشعاعات أهل الخاصّة، ولنا في هذا ما تقدّم به في ديوانه يكون الدّعاء ملحقا في مقام الفناء والبقاء، ويناجي حضرته، والحضرة النبوية صلاة وتسليما ، يقول في ذلك :

الْحَمْدُ كَمَا أَمَرَ وَالشُّكْرُ لَا يَنْحَصِرُ

عَلَى الْقَضَا وَالْقَدَرِ إِلَهِي نَسْعُو رِضَاكَ³

نَحْمَدُكَ حَمْدًا يَبْقَى بَعْدَ فَنَاءِ الْخَلْقِ

عَلَى مَا قَدْ سَبَقَ وَجَرَى بِهِ قَضَاكَ

صَلَاةُ ثُمَّ التَّسْلِيمُ وَالرَّحْمَةُ وَأَزْكَى التَّعْظِيمِ

¹ عبد المنعم خفاجي " الأدب في التراث الصوفي "، ص 123

² أحمد بن عليوة " دواوين أبيات المحبين في مقامات العارفين"، ص 93_94

³ المرجع نفسه، ص 97

عَلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ أَفْضَلُ مِمَّنْ نَاجَاكَ

بِجَاهِهِ سَأَلْنَا إِلَٰهِي لِتَرْحَمَنَا

فِي فَضْلِكَ طَعَمْنَا أَغْنَانَا يَوْمَ لِقَاكَ

بِجَاهِ عَيْنِ الرَّحْمَةِ ذِي الْوَسِيلَةِ الْعُظْمَى

ارْحَمْ رَبِّي ذِي الْأُمَّةِ وَفِقْهَا إِلَى هَذَاكَ

فدعاؤه دعاء الفاني بعد البقاء، فكشف الحجب، والشكر حين صون السر الإلهي، في مقام جمع الجمع ثم الفرق فالصحو، ودعاء بالحقيقة المحمدية التي هي صلة بأعلى مقامات التمكين، و، وفي هذا المستوى يدعي قائلاً :

عُقُولُنَا ذَاهِلَةٌ أَجْسَامُنَا عَاطِلَةٌ نُفُوسُنَا ذَابِلَةٌ خَاضِعَةٌ لِقَضَاكَ¹

بِمُحَمَّدٍ ارْحَمْنَا إِلَٰهِي لَا تَحْرِمْنَا بِالْحُسْنَى وَعَدَّتْنَا، وَالنَّظْرُ إِلَى بَهَاكَ

بِالْحُسْنِ وَالزِّيَادَةِ عَنْ لِسَانِ أَحْمَدَ أَتَيْنَاكَ فَرَادَى بِكَ لَكَ سَأَلْنَاكَ

بِرَسُولِكَ الْأَعْظَمِ بِنَبِيِّكَ الْأَفْخَمِ بِحَبِيبِكَ تَرْحَمْ بِجَاهِهِ قَصَدْنَاكَ

الرتاء:

¹ المرجع السابق، ص 98

اندرج الرثاء في الأدب الصوفي ضمن النثر، في حين نجد الرثاء عند أحمد بن عليوة شعرا، ومن ذلك رثاؤه لشيخه محمد البوزيدي في قصيدة تموج ذوق وإلهام صوفيين عميقين، وفي هذا يقول:

لِلَّهِ أَشْكُو حُزْنِي لِفَقْدِ عَرْشِ الْوَلَا	فَقِيدُ الْوَرَى طُرًّا وَاللَّهُ كَذَا الْعَصْرُ ¹
فَقَدْ حِيلَ النَّزَى مِنْ بَعْدِ احْتَوَائِهِ	عَلَى الْكُلِّ فَكَيْفَ بِهِ غَمَّةُ الْغَمْرِ
فَقِيدُ كَانَ فَوْقَ الْكُلِّ وَالْكُلُّ دُونَهُ	فَيَا عَجَبًا كَيْفَ أَحَاطَ بِهِ الْقَبْرِ
فَمَا حَاطَ هَذَا الْقَبْرُ كَلًّا وَإِنَّمَا	أَخَذَ مِنْهُ رَشْقًا فَنَالَ بِهِ فَخْرُ

وصف الأحوال والمكاشفات:

جاءت النصوص الصوفية مزخمة بالأحوال والمقامات، والأذواق و المواجيد الحاصلة في سفر الصوفي الصعودي، والترقي إلى بهاء ونورانية الحضرة الإلهية، ووصف حالات التجلي والمكاشفة والفناء، فنجد يصف حالة انفصال الصوفي عن جسده، وسفر روحه إلى المحضر الأعلى الذي هو مشكاة تستنير به الصوفية بعد فنائهم، ومن أمثلة ما يقول:

جَالَتْ الْأَرْوَاحُ	بِمَحْضَرِ الْقُدُسِ ²
لَوْ تَرَى يَا صَاحَ	مَا وَرَاءَ اللَّبْسِ
كَأَنَّهُ مِصْبَاحُ	فِي مِشْكَاةِ الْحِسِّ
تَشْكَلُ مَعْنَاهُ	بِكُلِّ لَوْنٍ

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَمَّا رَأَتْ عَيْنِي

¹ أحمد بن عليوة "دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين"، ص 100

² المرجع نفسه، ص 25

فكلّ نظرة إلى المقام شوق وترقب، وفي " ثمرة حضرة القدس بذل الأرواح والنّفوس، فالعارفون لا يصحّ لهم حتّى يبذلوا الكلّ فيأخذوا وقتنّذ الكلّ..."³، و ممّا يقوم عليه حال الفناء وما يعتري صوفية الخمرة من تواجد ووجد، وبشرى لقاء الدّات الإلاهية، وحول ذلك يقول :

صَفَتِ النَّظْرَةَ طَابَتِ الْحَضْرَةُ جَاءَتِ الْبُشْرَى لِأَهْلِ اللَّهِ²

قَامُوا سُكَارَى لِذِي الْبَشَارَةِ جَعَلُوا عِمَارَةَ شُكْرًا لِلَّهِ

أَيُّهَا الْحَاضِرُ اذْكُرْ وَذَاكِرْ إِيَّاكَ تُنْكِرْ حَالَ أَهْلِ اللَّهِ

فَسَلِّمْ لَهُمْ فِيمَا عَرَاهُمْ وَعَلِّمْ أَتَّهُمْ غَابُوا فِي اللَّهِ

الفخر:

هو من أغراض الأدب الصّوفي الرّفع، عرفه الصّوفية الدّين كتبوه ودوّنوه، وخلّدوه في آثارهم شعرا ونثرا، حكمة ونصيحة، وموعظة، ومثلا وعبرة، وحفل أدبهم بروائع المناجاة، والوصف، وكذلك الفخر، الذي اعتقد أنّه حكر على الأدب دون التّصوف، " فالصّوفي لا يعيش التجربة لتظلّ فيه صامتة، وحبيسة الدّات، وهو ما إن لم يعبر عنها، وهو يحترق داخل التجربة لاستحالة ذلك..."³، فلغة التّصوف لغة المعاني والأخيلة والحماسة أيضا فما أحلى تلك اللّوائح التّورانية التي يدعو الله فيها محبوبه للقرب، إنّها لحظة فخر للصّوفي ، كما كانت لأحمد بن عليوة التي جسّدها في شعره ،ومن ذلك:

أَحْبَبْتِي إِنْ كُنْتُ عَلَى صِدْقٍ مِنْ أَمْرِي فَذَاكَ نَفْسُ السَّيِّلِ سِيرُوا عَلَى سَيْرِي⁴

فَلَسْتُ عَلَى شَكٍّ تَأْتِيهِ وَلَا وَهْمٍ أَنَا الْعَارِفُ بِاللَّهِ فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ

سُقَيْتُ مِنْ كَأْسِ الْحُبِّ ثُمَّ مَلَكْتُهُ فَصَارَ مِلْكَاً لَدَيَّ فِي مَدَّةِ الدَّهْرِ

³ إبراهيم عاصم الكيّالي " رسائل الشّيخ المستغانمي"، ص 322

² أحمد بن عليوة" دواوين آيات المحبّين في مقامات العارفين"، ص 93

³ أحمد الطرييق أحمد " الكتابة الصّوفية في أدب التستاوي"، ص 871

⁴ أحمد بن عليوة" دواوين آيات المحبّين في مقامات العارفين"، ص 49

جَزَى اللهُ مَنْ جَادَ عَلَيْنَا بِسِرِّهِ قَالَجُودُ فَذَلِكَ الْجُودُ مَنْ جَادَ بِالسِّرِّ

إنّهُ فخر سرمدى الأصل والنّبع، من علم الباطن، منزّه عن كلّ السّقليات و المرامي الماديّة من مال وجاه وسلطان ، ثمّا فخر يعقبه دنو وقرب، إنّهُ فخر بسير إلى المقام الأسنى إلى سدرة المنتهى التي ليس بعدها سدرة إلا تلك الأحذية التي هي فيض ربّاني لذاته تعالى، فالأحد وجود على أحبائه الكشف، والصوفي العارف لا يبخل على ذاته تعالى بالصّون والكتمان بعد صحوهم ،وانبهارهم ، وكم يفخر بمقام روحانيته، و" إنّما هو الفخر الصّوفي ، أو الفخر الرّوحي الدّي ترفع فيه الشّيخ عن حطام الدّنيا ، وما فيه من زينة و مغريات، إنّهُ بكلمة مختصرة الفخر بالانتساب لأهل العرفان، ومقام المعرفة اليقينية..."¹.

كما يفخر بانتسابه لأهل النّسبة الدّين جالت حول العرش أسرارهم و أرواحهم، وفي هذا الشّأن يقول:

يَا وَرَقَةَ الْجَوَى نُوحِي ذَكَّرِينَا بَعْدَ الْمِلَاحِ²
بِأَسْرَارِ الْهَوَى بُوحِي فَمَا عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحِ
إِنَّ الْمُحِبَّ الْلُحُوحِي دَمُهُ فِي الْهَوَى يُبَاحِ
فَقُلَا وَ خَفَقَانَ رُوحِي إِنَّ الْهَوَى لَفَضَّاحِ

إنّ الصّوفي وريث علم الباطن من الوارث المحمّدي صاحب الحضرة المحمّدية، نور الأنوار، وروح الأرواح المدبّرة محمد(ص) هو كأس الشّرب، وشوق المحب المفتون صاحب المعراج الحسّي الدّي لا عروج بعده إلا عروج التّخييل إلى الملكوت، ومدى ارتباط تلك الحقيقة بالصّوفي الدّي تهبة مرتبة الإنسان الكامل، وحول النّور المحمدي يقول أحمد بن عليوة :

¹ عدّة بن تونس " التربية والمعرفة في مآثر الشّيخ أحمد بن مصطفى العلوي"، ص

² أحمد بن عليوة" دواوين آيات المحبّين في مقامات العارفين"، ص 66

فَقَلْنَا الْإِدْنُ سَابِقًا وَ الْيَوْمَا
يَنْشُرُ مَا خُفِيَ عَنِ الْعَوَامِ¹
مِمَّنْ رَسُولُ اللَّهِ كَانَ يَا قَوْمَا
إِذْ قَالَ لِي بُشْرَاكَ يَا غُلَامُ
قَقْدُ جَعَلْنَاكَ يَنْبُوعًا لِلْحِكْمَةِ
أَنْتَ الْأَمِيرُ وَأَنْتَ الْهُمَامُ
فَقَقُلْتُ يَا مَوْلَايَ فَلَا نَدَمَا
ضَعُفَ عَزْمِي فِي هَذَا الْمَقَامُ

الترغيب في النسبة:

يعدّ هذا سفر من أسفار الأدب الصّوفي، يوضّح طريق العارفين، و يعتمد على إبانة منهج السّالّكين، فالنسبة مادّة موصولة بالله، ولذلك كانت الدّعوة إلى الطّريقة، وإلى الصّفاء الرّوحي، وهذا ما اتّسمت به الطّريقة العلاوية، التي بها توجه الشّيخ إلى مريديه داعيًا إيّاهم إلى " تهذيب النّفس بمكارم الأخلاق، وبالترغيب في حلاوة الدّكر، والدّخول في الطّريقة، والانتساب إلى أهلها...²، فتلوّنت أشعاره بهذه الصّفة، وخاصة ما ميّزها من أورد وسند، التّفسير القرآني، والحلقات الرّمضانية، ومن أشعاره ما كانت رسالة لمريديه، وفي ذلك قوله:

يَا خَلِيّ فَاشْطَحْ وَغَنِّ وَافْرَحْ
عَلَّكَ تُمْنَحُ مِنْ شُهُودِ هَذَا الطَّيِّبِ³
بَحْرُ الْمَشَارِعِ سُبُلُ الْمَنَافِعِ
شَمْسُ السَّوَاطِعِ عَنِ الْأَكْوَانِ لَا تَغِيْبُ
كَزُّ الْحَقَائِقِ كَهْفُ الْوَتَائِقِ
ضِيُّ الْبَوَارِقِ مِنْ نُورِهِ شَقُّ الْكَئِيبِ
يَا خَلِيّ خَلِّ اسْجُدْ وَصَلِّ
وَاصْنَعْ لِقَوْلِي لَعَلَّكَ تُسْقَى نَصِيبُ
وله أيضا :

بُشْرَاكُمْ سَادَاتِي
بُشْرَاكُمْ أَحِبَّتِي⁴

¹ المرجع السابق، ص 46

² يحيى بعبطيش "دراسات في الخطاب الصّوفي عند أقطاب الطّريقة العلاوية"، ص 40

³ أحمد بن عليوة "دواوين آيات المحبّين في مقامات العارفين"، ص 53_54

⁴ المرجع السابق، ص 17

بَشَرْتُكُمْ بِالْآتِي أَنْتُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ
جَمْعُكُمْ عَيْنُ الرَّحْمَةِ جَمْعُكُمْ فِيهِ حِكْمَةٌ
وَمِنْ حُبِّكُمْ سَمَى عَلَيْكُمْ رِضْوَانُ اللَّهِ

الرد على المعترضين :

جاءت أشعار أحمد بن عليوة كردّ على بعض الإصلاحيين الذين هاجموا الطريقة ممّن لا يشهدون عظمة المتصوفة على أيدي رجال قاموا بأحكام الشريعة، وآداب الطريقة، وكتب عدّة مؤلفات تردّ على أقوال الغلاة الذين كفروا الصّوفية ، على أنّ التّصوف الحقيقي ، كما أورده عن بن صدر الدّين أنّ " التّصوف هو علم يعرف به كيفية ترقّي أهل الكمال من النّوع الإنساني في مدارج سعادتهم، والأمور العارضة لهم في درجاتهم بقدر الطّاقة البشرية...¹، ومن أشعاره ما نصّه:

بَحْرُنَا بَحْرٌ عَمِيق لَا يُقَاسُ لِلْعَوَامِ²
لَا تُعَارِضُ بِالنَّدِيق لَا تُنَازِعُ بِالْأَوْهَامِ
جِنَّا بَعْلَمَ رَفِيق لَا يَحْتَمِلُهُ الْكَلَامِ
إِلَّا لِذَوِي النَّصْدِيق جَاءَهُمْ وَحْيُ الْإِهَامِ

فمذهب الصّوفية مزخّم بالرموز و التّلوّيات، لا يفهمها أهل العامّة ما لم يحتكموا إلى اصطلاحات الصّوفية التي تذر الظّاهر، وتقوم على الباطن طريق الرّبوبيّة، والنّورانية، ومن ذلك الفناء والتّجليّ التي يقصر فهم العوام على استيعابها ممّا يقودهم إلى إنكار علوم الصّوفية، في قوله:

يَا مَنْ لَمْ تَقْهَمْ مَقَالِي لِمَذَا تُتَكْرَعُ عَلَيَّ³
أَنْتَ مِنَ الْمَعْنَى خَالِي جَاهِلًا بِالْأُلُوهِيَّاتِ

¹ أحمد بن عليوة " رسالة الناصر معروف في الدّب عن مجد التّصوف "، ص 60

² أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحيّين في مقامات العارفين "، ص 21

³ المرجع السابق، ص 34

لَوْ كُنْتُ تَعْلَمُ بِحَالِي تَعْتَرِفُ لِي بِالْمَزِيَا

إنّ أحمد بن عليوة في خضم هذا الموضوع يبيّن بقوله: "إني لا أنكر وجود المعترضين في كلّ عصر من أهل السّنة على بعض أفراد المتصوفة لاحتمال جود النّقض في المعترض أو المعترض عليه، وأمّا إنكار مذهب التّصوف من أصله لم تتظاهر به أهل السّنة...¹، فعلم الصّوفية من الخاصّة، وفهم هذا العلم من خاصّة الخاصّة، ومن تكلم فيه فهو بحر المعاني التي لا تدرك، ومن شعره أيضا:

رَافِقْنِي يَا خَلِيَّ لِكَيْ أُوصِيكَ	وَدَعْنِي وَحَالِي حَتَّى أُرِيكَ ²
رَاقِبْنِي فِي الْكُلِّ خُصُوصًا فِيكَ	وَمَنْ كَانَ مِنِّي يَفْهَمُ عَلَيْكَ
فَمِنْ وَرَاءِ شَكْلِي سِرٌّ يَحْوِيكَ	وَفِي الظَّاهِرِ فِعْلِي يَصْعُبُ عَلَيْكَ
لَا تَصْغَى لِعُدَالِي حِجَابٌ يُورِيكَ	يَأْخُذُ ظَاهِرَ قَوْلِي يَنْكُرُ عَلَيْكَ
أَثْرُكُهُ وَخَلٌّ مَا لَا يَعْنِيكَ	وَأَزْهَدْ لَهُ فِي الْكُلِّ حُبُّكَ يُدْنِيكَ

الغزل:

إنّ الدّلالات والمعاني والحسيّة التي يدرجها الصّوفيون في أشعارهم يرمزون بها إلى مفاهيم وجدانية روحانية على الرّغم من مادّية الدّلالات الصّوفية تلك ، مردّ ذلك إلى "عجز الصّوفيين في طوال الأزمان عن إيجاد لغة الحبّ الإلهي تستقلّ عن لغة الحبّ

¹ أحمد بن عليوة "رسالة القول المعروف في الرّد على من أنكر التّصوف"، ص 51

² أحمد بن عليوة "دواوين آيات المحبّين في مقامات العارفين"، ص 100

الحسّي كلّ الاستقلال...¹ , وتجدر الإشارة إلى أنّه لا انفصام بين الغزل والحبّ الإلهي وهذا الأخير الذي هو تطوّر للحبّ, وعليه فإنّ " الحبّ الحسّي يتجه إلى الخلق, أمّا الحبّ الروحي فوجهته ذات الحق, وقد رأينا الغزل الحسّي , ثم الغزل الروحي ثم تطوّره إلى الحبّ الإلهي, وهي حلقات متصلة...².

إنّ أشعار بن عليوة لم تخلو من لمسات الحبّ السّرمدى, وفي ذلك ما لمسناه في ديوانه, ومن ذلك ما وجدناه أيضا في تائيته ومنها:

لَقَدْ تَهَنَّكْتُ وَالتَّهَنُّكَ شِيَمَتِي	إِنَّ تَهَنُّكَ الْحُبِّ أَجْمَلُ حُلَّةٍ ³
خَلَعْتُ عِذَارِي لَا أَبَالِي بِعَاذِلٍ	مَزَقْتُ ثَوْبَ الْوَقَارِ مِنْ قَرطِ نَشَوْتِي
وَعَبْتُ عَنِ الْأَكْوَانِ مَدَّ حَذَقُهَا	لَمَّا آنَسْتُ فِي الْحَيِّ نَارَ الْأَحْيَةِ
قُلْتُ امْكُثُوا لِأَهْلِي فَلَعَلِّي أَحَدُ	هَادِيًا فَوَجَدْتُ هُدَايَ فِي حَيْرَتِي

ينصهر الحبّ في مذهب وحدة الوجود, ويذوب مع مقامات الفناء والتّجلي, ويتحدّ الحبيب مع المحبوب, كما دخلت أوصاف الحق في أوصاف الخلق , فاجتمعت في أدب الحبّ الكوني, أدب الوجدان, " فالمحبّة سفر القلب في طلب المحبوب, ولهج اللسان بذكره على الدوام...⁴, فله محبة, والمحبة لذة, والحق لا يتلذذ به " لأنّ مواضع الحقيقة دهش واستقاء, وحيرة...⁵, وسوف نستعرض أشعار الحبّ الأبدية التي جادت بها ذات أحمد بن عليوة , ومنها:

فَلَا تَرْضَ يَغَيِّرَ اللَّهُ حُبًّا كُلُّ شَيْءٍ مَّا دُونَهُ سَرَابُ⁶

¹ عبد المنعم خفاجي " الأدب في التراث الصّوفي", ص 182

² المرجع نفسه, ص 203_204

³ أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبّين في مقامات العارفين", ص 26_27

⁴ عبد الحكيم عبد الغني " المذاهب الصّوفية ومدارسها", ص 105

⁵ تاج الإسلام أبو محمد الكلاباذي " التعرف لمذهب أهل التصوف", ص 110

⁶ أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبّين في مقامات العارفين", ص 48

نَصَحْتُكَ إِنْ كَانَتْ لَكَ نِسْبَا
أَهْلُ الدُّكْرِ فِي مَحْبُوبِهِمْ غَابُوا
فَلَا عَيْشَ إِلَّا لِذَوِي الْقُرْبَى
لَيْسَ لَهُمْ عَنِ الْحَقِّ حِجَابُ
أَيْنَ الْجَنَانُ مِنْهُمْ أَيْنَ طُوبَى
عِبَادُ اللَّهِ مِنَ الشَّوْقِ ذَابُوا
شَرِبُوا مِنْ مُدَامَتِهِ غَبَا
أَخَذَهُمْ عَنْهُمْ ذَاكَ الشَّرَابُ

إنّ الغزل الصوفي بحدّ ذاته هو عند الصوفية كلّهم " غزل بتجليات عديدة لحقيقة واحدة، وبأسماء مختلفة لمسمّى واحد، فضلا عن كون هذا الغزل رمزا وتلميحا للأسرار الصوفية الشاطحة، وحيلة فنيّة لوصف حب العبد لربه وصفا أدبيا ، يحاكي الشعور الذاتي للعبد وفرديته..."¹، فهو إذن عاطفة جديدة لكمال إلهي غنيّة بزخمها العاطفي ، وعبر أيضا عن المرأة بأنّها النفس الكلية عند الصوفية .

الخصائص الفنيّة في ديوان أحمد بن عليوة:

الإيقاع:

معظم أشعار الديوان لم تقم على النّظام العمودي للشّعر المتعلّق بالعروض الشّعري، ولم تأتي على أوزان الشّعر العربي إلا ما ورد قليلا، وتميل الكثير منها إلى قصيدة النّثر الدّي في معظمه مثل مجمل قصائد الصّوفيّة، فأغلبهم لا يتعاطى فن الشّعر، كما أنّ

¹ وضحي يونس " القضايا النقدية في النثر الصوفي حتى القرن السابع الهجري" -دراسة- منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2006، ص 112

القصيدة الصوفية مثلاً غالباً ما تبقى على التقابل بين الأوضاع والأحوال المتناقضة، والتي يعقب بعضها بعض، أو يقيم بعضها إزاء بعض...¹، من فناء ثم بقاء البقاء، من السكر إلى الصحو، من مقام الجمع، ثم الفرق فالأحدية، ومنه فالذوات الصوفية لها ثقل على الإيقاع، فيتناسب معها على حسب المقامات والأحوال في السير والعروج والتجلي، ذلك ما نلمسه في شعره، ومنه قوله :

عَنهُ لُهُوَا كَيْفَ وَهُمْ لَهُ بَذَرُ زَاهِرٍ²
فِيهِ تَاهُوَا كَمْ هُمْ انْتَهَوْا فَرْدٌ لَا غَيْرُ
كَثِيرٌ غَدَا وَلِلْأَرْوَاحِ غَدَا بَرٌّ وَضَيْرُ
سِحْرٌ هَذَا أَوْ مَا تَرَاهُ هُدَى فَكُنْ حَاضِرُ
لَقَدْ أَنَا وَجْهُ الْمَحْبُوبِ أَنَا لَهُ سَائِرُ

نلاحظ أن أحمد بن عليوة في شعره هذا اعتمد على بنية إيقاعية خاصة، ويعدّ شعره ممارسات نصّية من خارج الوزن، فهذه الصّفة مثلت انفجار الذات التي ميّزت الصّوفي في تجربته الذاتية، فانغمس الشعر الصّوفي في مأزق مع العروض، كبادرة للولوج إلى قصيدة النثر، ولكنّه في شأن آخر فاتّه يبقى محافظاً على الشكل العام للقصيدة العمودية، "فقد كان يلتزم في كثير من موشحاته، وأزجاله على القافية الموحدة، التي يحدث تكرارها نوعاً من النّغمية الموسيقية التي تجعله قريباً من الغناء..."³، من ذلك يقول أحمد بن عليوة :

كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ نَرَى مَقْصُودِي بَعِيدُ وَهُوَ مَعِيَ فِي الْوَرَى وَأَنَا بَلِيدُ⁴
نَرَى الْأَرْضَ كَذَا السَّمَاءَ وَالْكَلُّ عَبِيدُ نَرَى النُّورَ كَذَا الظُّلْمَةَ وَالْحِجَابُ حَدِيدُ

¹ محمد حَبَّار " الشعر الصوفي القديم في الجزائر " - إيقاعه الداخلي ووظيفته - ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، 1997، ص 28

² أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين "، ص 73

³ عدّة بن تونس " التربية والمعرفة في مآثر أحمد بن مصطفى العلوي "، ص 162

⁴ أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين "، ص 102

تَاللهِ لِهَـذِي غَفْلَةٍ مَا لَهَا مَزِيدُ وَلَوْ لَا نَدَاهُ مِئِّي لَا زِلْتُ مُرِيدُ
خَلَقْتُهُ فِي ظَاهِرٍ وَطَلَبْتُ الْمَزِيدُ مَعَ أَيِّي كُنْتُ نَزَعَمُ بِالرَّأْيِ السَّيِّدُ
ظَلْتُ نَفْسِي فِي نَفْسِي وَكُنْتُ فَقِيدُ تَائِهًا عَنِّي فِي حَسِّي وَالْأَمْرُ وَاحِدُ

في هذه القصيدة تتلاشى سلطة النص الشعري على الشاعر الصوفي نفسه، بالرغم من أن شعره يتخذ مظاهر لإيقاعية تتسجم مع بعضها داخليًا ، تتناسب مع يستوفيه الإيقاع الخارجي ، مما يثير وجدان القارئ أو السامع معا، حيث أن " القارئ والسامع الذي من المفروض أن يتوقع تكرار القوافي في أواخر الإعجاز، صار يتوقع تكرار غيرها في أوائل الصدور...¹، محدثة بذلك نغما موسيقيا يستعذبه المتلقي ويتلذذ به، ومن أجل تجديد الطاقة الإيقاعية تلك في مسمطاته، وأزجاله، وموشحاته أيضا، ومن جهة أخرى نلفي " النغمية والغنائية أكثر في التزامه بتكرار بعض الألفاظ، أو الأشطار، واتخاذها كلازمة يكررها في نهاية أبياته، وموشحاته، وأزجاله... " ²، من ذلك قوله:

تِيَهَتْني ذَائِكُ وَغَيْتُ فَيْكَ يَا الله ³
ظَهَرَتْ صِفَائِكُ مِئَّكَ وَفَيْكَ يَا الله
لِمَنْ نَحْكِي سِرِّي لِمَنْ تُرِيكَ يَا الله
رَجَعْتُ لِسُكْرِي وَحَرْتُ فَيْكَ يَا الله

إنّ تنوّع الإيقاعات في قصائد أحمد بن عليوة تشكّل طابعا خاصا بالطريقة العلاوية، وأقطابها ، وأما الطابع الذي يغلب أيضا على شعره الطابع الشعبي ، إيرادا به تقريب الألفهام إلى مرديّه، عن طريق الإنشاد أو التسميع .

الاقتباس من القرآن والسنة:

¹ محمد حَبَّار "الشعر الصوفي القديم في الجزائر"، ص 76

² يحيى بعبطيش "دراسات في الخطاب الصوفي"، ص 110

³ أحمد بن عليوة "دواوين أبيات المحبين في مقامات العارفين"، ص 55

يَبْتَ الصَّوْفِي رُوحَهُ فِي عَوَالِمِ الرُّوحِ حِينَ انْفِصَالِهِ عَنِ الْمَسْرَحِ الدُّنْيَوِيِّ ، فِي صُحُوهٍ يَحْمِلُ مَعَهُ أَمَانَةَ الْحَضْرَةِ الْإِلَاحِيَّةِ، فَيَكْشِفُ عَنْ رِسَالَةِ الْحَقِّ الْأَزَلِيَّةِ، وَمَقَرِّ حُضُورِهِمْ تَجَلَّى فِي أَشْعَارِهِمُ الصَّوْفِيَّةِ، وَفِي حُكْمِهِمْ وَمَنَاجَاتِهِمْ، وَ" وَيَكْثُرُ الْاِقْتِبَاسُ فِي كَلَامِ الصَّوْفِيَّةِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، حَتَّى لَتَوْصَلَ الْآيَةُ بِالْآيَةِ، وَالْحَدِيثُ بِالْحَدِيثِ..."¹، فَأَشْعَارُهُمْ كَانَ يَتَخَلَّلُهَا طَابِعُ ذَاتِي دِينِي بُوْحِي أَدْمِي إِنْسِي، وَلَعَلَّهُ مَا يَظْهَرُ جَلِيًّا فِي شَعْرِهِ، وَمِنْهُ:

مِنْ خَمْرِ الْعِرْقَانِ سَقَيْنَا كِيزَانَ مِنْ يَدِ وَلَدَانِ مُخَلَّدِينَا²
أَهْلُ الْحَقَائِقِ بَيْنَ الْحَدَائِقِ عَلَى نَمَارِقِ مُتَكَيِّفِينَا
حَالُ الْعَارِفِينَ مُتَقَابِلِينَ عَلَى سُرُرِ مُسْتَبْشِرِينَا
أَبْنَاءُ الْحَضْرَةِ لَهُمُ الْبُشْرَى مِنْ قَبْلِ الْأُخْرَى مُعَزَّزِينَا

فَأَحْمَدُ بْنُ عَلِيْوَةِ يَسْتَقِي مَعَانِي قَصِيدَتِهِ مِنْ قَبْسِ النَّوْرِ الْقُرْآنِي، اسْتِنَادًا إِلَى سُورَةِ الْوَاقِعَةِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾⁽¹⁷⁾، بِأَكْوَابِ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ⁽¹⁸⁾، لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ⁽¹⁹⁾،³ وَنَسْتَشْفِ فِي أَشْعَارِهِ أَيْضًا وَصْفَ لِلْحَضْرَةِ الْإِلَاحِيَّةِ، وَحَالِ الْعَارِفِينَ بَعْدَ الْعُرُوجِ، وَالْوَصُولِ إِلَى بَابِ الْحَضْرَةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا قَدَّمَهُ فِي شَعْرِهِ، وَذَلِكَ فِي:

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ أَلَيْسَ فِيهِ تَصْرِيحٌ بِأَوْضَحِ حُجَّةٍ⁴
فَارْجِعْ بَصَرَ التَّحْقِيقِ مِنْ بَعْدِ كَرَّةٍ فِي كُنْهِكَ مَنْ أَنْتَ بَعْدَ الْكَيْفِيَّةِ

¹ عبد المنعم خفاجي " الأدب في التراث الصوفي"، ص 7

² أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين"، ص 63

³ سورة الواقعة، آ 18 إلى 19

⁴ أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين"، ص 28

وفي هذا البيت الأخير تضمين من تحويرات استمدها أحمد بن عليوة من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾⁽⁴⁾،⁵ والكرة هنا يقصد بها الفناء الذي يليه عين اليقين، ومن التحويرات أيضا في قوله عندما عبر عن مقام الجمع والكثرة بالتكاثر، وضمّنها في شعره:

وَلَكِنَّ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ جُمْلَةً حَتَّى فَرَّقْتُمُوهُ ثُمَّ تَقَطَّطُمْ²

وذلك اقتباسا من قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾⁽¹⁾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ⁽²⁾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ⁽³⁾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ⁽⁴⁾،³ كما اقتبس من الحديث النبوي، ووظفه في شعره، من ذلك قوله :

أَنْتَ حِصْنِي أَنْتَ عَوْنِي مِنْ نَفْسِي وَمَنْ وَلَاهَا⁴
أَنْتَ أَوْلَى بِهَا مِنِّي أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا

هذا ما ورد في قوله (ص) ﴿اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي هُدَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا..﴾⁵

الرموز والإشارات:

يعتبر أحمد بن عليوة مأخوذا بالرمز والتلويح، وهذه رغبة طبيعية تمثل طريقا آخر للتعبير عن مشاهداته، و رؤياه ، وأشواقه، و مواجيدته، ومن ثم فهو " يستخدم اللغة لا لكي يعبر بالكلمات فهي عاجزة، وإنما لكي يعبر بما يقدر أن ينسج بها من علاقات هي رموز وإشارات..."⁶، فاللغة العادية قاصرة على احتواء التجربة المطلقة للصوفية، ممّا أسهموا

⁵ سورة الملك، آ 4

² أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين"، ص 44

³ سورة التكاثر، آ 1، 4

⁴ أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين"، ص 32_33

⁵ عدة بن تونس " التربية والمعرفة في مآثر أحمد بن مصطفى العلوي"، ص 170

⁶ خالد بلقاسم " أنونيس والخطاب الصوفي"، دار توبقال للنشر والتوزيع، المغرب، ط 1، 2000، ص 96

في إنتاج اصطلاحات توازي حقائقهم، و تنزلاتهم الروحانية، وتتألفي عوالم الحسّ الظاهرة، فالمضي إلى المعرفة الباطنية التي يقصر استيعابها لدى العامة.

وفي هذا الشأن قال أحمد بن عليوة : " ومن المعلوم أنّ الألفاظ المتداولة بينهم غير ملائمة للمعنى حقيقة فهي دائماً إلى المجاز أقرب، وإلى التنزيه أنسب، ولا يسيء الظن بهم غلاً مسيء، لأنهم أعرف الخلق برّبهم، وبنسبة نبيّهم، وأيّ مطلع الفؤاد سالم الفؤاد يتخيّل في عقيدة القوم ما هو كالحلول، أو الإتحاد، أو التجزئة، أو التشبيه، وغير ذلك ممّا هو مناقض للتنزيه...¹، وتدعيماً لقوله لنا ما ورد في شعره كالآتي:

يَا سَائِقَ الْأَفْكَارِ	فِي مَيْدَانِ السَّرِّ ²
يَا حَازِي الْأَعْمَارِ	سِيرُوا عَلَى قَدْرِي
إِنِّي عَبْدُ الدَّارِ	تَابِعُكُمْ فِي الْأَمْرِ
وَالضَّعْفُ عَلَيَّ جَارِ	فَالْتَمِسُوا عُذْرِي

إنّ أحمد بن عليوة كغيره من الصّوفية كانت لهم لغة خاصّة شبه مستقلة تتبنّى العشق، والوجد ، و الخمرة والدمام، والصّحو، والسّكر، والجمع والغيرية، والفرق والتجلي والفناء، و العروج والغيبوبة، الوصل واليقين، المقام والحال، وبذلك أضحت هذه الألفاظ سفيرة الوصل الربّاني .

رمز الخمرة :

في عوالم الحسّ، ولا شراباً تعلو فيه المادّية، " فإشعاع الخمرة التي تولّد السّكر، أو توصل إليه ، الحالة المثلى إلي يريدها الشّارب ويسعى إليها، يوازي إشعاع العقل

¹ أحمد بن عليوة " أعذب المناهل في الأجوبة والرسائل " ، ص 157

² أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبّين في مقامات العارفين "، ص 27

وإشراقه...³, واستعمال رمز الخمرة, وما في ذلك من الدلالة على معاني ذوق المحبة الإلاهية والوجد , والتواجد , والتغني بحضرته تعالى , وفي ذلك يقول في ديوانه :

سَقَوْنِي وَقَالُوا لَا تُغْنِ وَلَوْ سَقَوَا حَبَالَ حُنَيْنٍ مَا سَقَوْنِي لَغَنَّتِ¹
سَقَوْنِي يَكْأَسُ مَنْ لَوْ أَهْدَى سَنَاهُ إِلَى الْجِبَالِ مِنْهُ نَصِيبٌ لُدُكَّتِ
سَقَوْنِي شَرَابًا قَدِيمًا كَانَ مِزَاجُهُ غَرَامًا وَتَبْرِيحًا وَوَجْدًا وَحَيْرَةً

فالخمر معادلا موضوعيا للوجد الصوفي, فحين يتكلمون عن المحبوب (الدات الإلاهية) يأخذون الألفاظ الخمرية قوالب جاهزة تعبر عن أحوالهم الصوفية, فهي بمنزلة الرمز فالسكر لا يكون إلا لأصحاب المواجيد , " وهو سكر روحي أو معنوي بغير خمر , إذ أن الصوفية كانوا يستخدمون هذه المصطلحات بدون أن يشربوا الخمر, بينما كان فريق منهم يصل إلى حالة الغيبة عن طريق الإسكار الفعلي...², فهم يعيشون حالة اصطلام, فلا يصحون إلا بعد المشاهدة , وفي قول أحمد بن عليوة :

دَارَتْ كُؤُوسُ الْغَرَامِ مَا بَيْنَ الْمَوَالِي³
فَزَادَتْهُمْ اصْطِلَامٌ حَالًا عَلَى حَالٍ

فالسكر ينتشي به الجانب الأرضي, و الانفصال عنه هو سفر إلى العالم الروحي

رمز الحب :

لقد أضى العنصر الأنثوي الدعاة الأساسية في التجربة الصوفية , استعمال الغزل الرقيق في شروحاتهم الصوفية , وفي رموزهم الباطنية, وراء الحجب والستر, والتسامي

³ أحمد الطرييق أحمد " الكتابة الصوفية في أدب الشتاوي " , ص 975

¹ أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين " , ص 43

² محمد علي أبو ريان " الحركة الصوفية في الإسلام " , ص 136

³ أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين " , ص 39

الحسّي والروحي , ولا تخلو أشعار أحمد بن عليوة بهذه السّمة الغزلية, وذلك ما يظهر جلياً في ديوانه :

تِيَهَّنِي لِبْنِي بَلِّثْ لِنَام¹
بَوَصِّلَهَا حُزْنًا مَا حَوَى كَلَامَ
قَدْ جَاوَزْنَا عُدْنَا وَحُورَ الْخِيَامَ

وهنا يقصد بها الحضرة الإلاهية التي بينه وبينها حجاب مسدول , ومشتاق لوصولها في مقام التجلي نحو بلوغ الأنوار الإلاهية, فاستعار اسم لبني لصون الأسرار الإلاهية, وكتمانها, فالمقرب مسرور بقربه, و" المحب معذب بحبه لأنّه يشتهي القرب, يتقلب على جمر الشوق, متألم بالأمّ العشق, لا يتلذذ به جنب ولا ظهر..."², فهذا حال المعذب بحبه قبل أن يتأتى له رياض القرب والمشاهدة, وهذا الحال ما عبّر عنه أحمد بن عليوة في تعبيره عن الحضرة الإلاهية, كما استعار اسم ليلي للتعبير عن الحضرة المحمدية, مثل ذلك قوله :

أَرْقَنِي الْغَرَامُ مِنْ حُسْنِ لَيْلَى³
وَالْقَلْبُ فِي هِيَامَ مَعَ الْجَمِيلَا
وَدَمْعِي فِي انْسِجَامَ عَمِلْتُ مَسِيلَا
مِنْهَا صَابَتْني سِهَامَ صِرتُ عَلِيلَا

كما كان اسم ليلي ضمن المعجم الصوفي للدلالة على الحضرة الإلاهية, وله أيضا :

دَنَوْتُ مِنْ حَيِّ لَيْلَى لَمَّا سَمِعْتُ نِدَاهَا⁴
يَا لَهُ مِنْ صَوْتٍ يَحُلُو أَوْدٌ لَا يَتَنَاهَى

¹ المرجع السابق, ص 69

² إبراهيم عاصم الكيالي " رسائل الشيخ المستغامي", ص 224

³ أحمد بن عليوة " دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين", ص 52

⁴ المرجع السابق, ص 30

رَضَتْ عَلَيَّ جَذَبْتَنِي

أَدْخَلْتَنِي لِحِمَاهَا

أَنْسَتَنِي خَاطَبْتَنِي

أَجْلَسْتَنِي بِحِذَاهَا

كيف لا ، وإذ الصّوفية كما أنّ " القوم جنّوا بليلي، وهي جنّت بغيرهم ، فكيف لا يجنّون في تقديس التّوحيد ، ووقف الموجد بشاطئ البحر الأعظم، ألا وهو بحر التّوحيد، وغشي عليه لكثرة رؤيته لمن هو مثله قد شغله جنون التّوحيد ، غرام التّقريد ..."¹ وفي الأخير كانت هذه الخصائص التي ميّزت ديوان أحمد بن عليوة ، فرموز الحب والغزل، تطغى على قصائده كاصطلاحات يشترك فيها مع الصّوفية، فكانت لهم لغة الدّلالات الإشارية التي تعبّر عن ذواتهم، كما تبيّنت خصائص أخرى عنه كالتّصغير، والنداء ، وما إلى ذلك .

¹ محي الدين الطّعمي " إحياء علوم الصّوفية "، المجلّد 1، المكتبة الثقافية بيروت ، 1994 ، ص 38